دور المرأة في المجتمع

"دراسة بلاغية في القرآن الكريم"

دكتورة

فريدة محمد علي حسن

أ. البلاغة والنقد المساعد في الكلية

٢٠١٧م

الإهداء

الإهداء

الإهداء

المقدمة

الحمد لله، نستغفره ونستهديه، ونستعين به، ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلي ونسلم على نبيه وحبيبه محمد ﷺ ما طلعت شمس وما غدت.

لقد زادت في الآونة الأخيرة الهجمة الشرسة على الإسلام والأخذ من يدعون أنهم حماة الحرية ودعاة التحضر أن يكيلوا ما حداهم إليه شيطانهم من أكاذيب وأباطيل، ويبدوا أنهم اتخذوا من طبيعة المرأة الحانية التي تميل إلى الأقوال البراقة الخادعة دون أن تعي في كثير من الأحيان، ما تحمله هذه الكلمات من طعون وسهام توجه إليها أول ما توجه فعزفوا على تلك الوتيرة، وأنشدوا لحن حقوق المرأة التي أهدرها المجتمع الاسلامي وهم يريدون من إثارة مثل هذه القلاقل، الطعن في الدين الإسلامي، ومحاولة زعزعة أركانه الراسخة.

فشعرت بمسئولية ملحة، في إبراز دور المرأة في المجتمع الإسلامي، كما ذكرها القرآن الكريم لدحض حجة هؤلاء المفترين وكبح جماح ضلالتهم وافتراءاتهم فعقدت العزم – مستعينة بعون من الله وتوفيقه – على عمل هذا البحث.

إن الإنسانية تطير بجناحين، الرجل والمرأة معا وإن انكسار أحد الجناحين يعنى التوقف والهبوط.

لقد وجهت إلى الإسلام تهم بإهانة المرأة واستضعافها، فهل في كتاب الله ما يبعث على هذه التهمة؟؟

فالحمد لله أن القرآن ما زال بين أيدينا لم يتغير منه حرف إذا قارنا ما يثبته أدعياء المدنية الحديثة من دور للمرأة في المجتمع وما يدعونه من

حقوق قد حصلت عليها في التاريخ المعاصر، وبين ما كفله لها الإسلام في نفس هذه الميادين نجد أن هذه الأدوار التي يتشدقون بها ليست بدعة أهتدى إليها المعاصرون، وإنما هي واقع ملموس ومرسوم في آي الذكر الحكيم، وعبرت عنه آيات غزيرة في عددها، متنوعة في أبواها – وكأنها المولى – جلا وعلا– أراد من وراء ذلك أن يثبت حقوق المرأة وواجباتها في عصر كانت المرأة فيه مذلولة محتقرة، كأنها متاعا يغلو ثمنه أو تبخص قيمته وفقا للأغراض والأهواء.

وهكذا: فإن آي الذكر الحكيم قد أولت شئون المرأة ودورها في المجتمع عناية مخصوصة لم تدانيها أو تقاربها تلك المدنية الحديثة ومنظمات حقوق الإنسان الجائرة.

فعزمت بعون من الله وتوفيقه على مواجهة هذه الهجمة الظالمة لبيان بعض أدوار المرأة في المجتمع كما نص عليها القرآن الكريم، ببيان مواضعها وإبراز دور البلاغة في تصوير هذا الدور وإبرازه وتجسيد الحقائق الإنسانية التي زخرت بها تلك الأدوار التي قامت بها المرأة وكيف صورها لنا الكتاب الحكيم.

وجاء بحثي بعنوان:

"دور المرأة في المجتمع" دراسة بلاغية في القرآن الكريم"

ويتكون هذا البحث من مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر لمحتويات البحث.

وجاء المبحث الأول بعنوان:

البلاغة في دور الملكة كما ذكره القرآن الكريم.

والمبحث الثاني بعنوان:

البلاغة في دور المهاجرة كما ذكره القرآن الكريم.

والمبحث الثالث بعنوان:

البلاغة في دور المبايعة كما ذكره القرآن الكريم.

والمبحث الرابع بعنوان:

البلاغة في دور العاملة كما ذكره القرآن الكريم.

ثم جاءت الخاتمة، وجمعت فيها النتائج الإجمالية لهذا البحث، وقد استقيت مادة بحثي من ذخائر وكتب البلاغة.

وبعـــــد،،،

فهذا العمل المتواضع هو غاية الجهد، ولا أدعى أني قد استكملت جميع جوانبه، ولكن حسبي أني بذلت طاقتي، فإن كنت قد وفقت فذلك من منن الله تعالى علي، وإن كانت الأخرى فما أجدر الإنسان بالخطأ والزلات، وهذا جهد المقل الذي لا جدال أن فيه ما يدع المجال أمام من ينظر فيه إلى التعديل والتصويب والتقويم.

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب"[هود:٨٨].

د/ فريدة محمد علي حسن

*** * ***

الإهداء

المبحث الأول

"دور المرأة الملكـــة"

المقصود بالمرأة الملكة: هي التي تلبي أمور الدولة العامة ويكون بيديها مقاليد الأمور والتصرف في حركة المجتمع وشئون الأمة، ومن هذه النماذج التي عرضها لنا القرآن الكريم والتي سأتناولها بالبحث – بإذن الله تعالى – نموذج للمرأة الملكة في موقع الحكم "الملك" ونموذج للمرأة الملكة بوصفها زوجة الملك، وهي امرأة فرعون ملك مصر.

وأبدأ بالنموذج الأول لملكة سبأ "بلقيس" التي قال عنها المولى –عز وجل– في عرض قصتها التي جاءت على لسان الهدهد "إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم". [النمل:٢٣]

فهذا وصف الهدهد الذي نعت به تلك المرأة، مبتدئًا كلامه بالتوكيد، لكون أمرًا غريبًا، فلم يكن مفهومًا في بني إسرائيل أن تكون امرأة ملكة. واستخدام الهدهد لفظ "وجدت دون رأيت يومي بأن غيابه عن مملكة سليمان كان في سبيل خدمته وبحثًا عن شئون تهم سيده، فأولى صفات هذه الملكة إنها امرأة، ولا شك أنها امرأة عظيمة تلك التي استحوذت على اهتمام الهدهد، ودعته إلى أن يتغيب عن المملكة ويخالف أمر سليمان، ولقد أفاد التنكير هذه العظيمة، وجمع لتلك المرأة عدة خصال كل واحدة منها كفيلة بأن تكون عذرًا لتغيب الهدهد.

١– كونها " تملكهم" والضمير قد يعود على (سبأ)، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريد به القرية، فيكون من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية.

٢– "وأوتيت من كل شيء" وجمع مزايا تلك المرأة بالواو "تملكهم"

وجملة "وأوتيت من كل شيء" للتوسط بين الكمالين مما أفاد تفخيم شأن تلك الملكة وعظمة ملكها، وكان لاختيار لفظ " الإيتاء" دون غيره من مفردات اللغة التي كان يمكن أن تؤدي معناها، لأن الإيتاء يشعر بأن الأمر المعطى إليها أمر مرغوب فيه.

ومما أفاد عظمة المؤتى بناؤه للمجهول "أوتيت" وتأتي المبالغة في التعبير لتعطي عظمة أخرى إلى عظمة ما أوتيته هذه الملكة " من كل شيء".

- ولكن هل من مقارنة بين ما سبقها به سليمان – عليه السلام – في قوله "وأوتينا من كل شيء" مع ما قاله الهدهد في شأن بلقيس "وأوتيت من كل شيء،" مع كون الهدهد أحد أفراد مملكة سليمان؟ ونجيب عن هذا التساؤل ما أجاب به صاحب البحر المحيط [بأن قول سليمان – عليه السلام– عطف على قوله: "علمنا منطق الطير" وهو معجزة فيرجع إلى النبوة والملك والحكمة وأسباب الدين والدنيا، أما مقولة الهدهد فجاءت عطفًا على الملك فلم يرد به إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا](١).

- ولم يكن ما نالته تلك الملكة شيئا محددًا، لذا قال أوتيت من كل شيء، لتذهب النفس فيه كل مذهب فمنه ما كان إرثًا، ومنه ما كان كسبًا منها، ومنه ما وهبها الله من علم، وحكمة وكياسة وفطنة، وما منح بلادها من ذهب ووفرة مياه] (٢)..

- ثم ذكر أثمن ما امتازت به ملكة سبأ وهو العرش، فقال: "ولها

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٦٧ تأليف محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار البناء للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) التحرير والتنوير جـ ٩ ص ٢٣٥، تأليف محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧م.

عرش عظيم" عاطفًا خصوص ما تملكه على عمومه، "أو من كل شيء" اهتمامًا بشأن ذلك الخاص، وعلى الرغم من مشاهدة الهدهد لعظمة عرش سليمان، إلا أنه استعظم عرش بلقيس؛ [لكونه استصغر حالها بجوار سليمان – عليه السلام –، فعظمة عرشها بالنسبة إلى عروش أمثالها، إما عن وصف عرشها بالعظمة الموصوف بها عرش المولى – عز وجل –، فعظمة عرشه –تعالى– بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض] (١).

وتوالت الكنايات في هذه الآية الكريمة لما للكناية من القدرة على التعبير عن المعنى بصورة أقوى من التصريح، ففي قوله: " تملكهم" كناية عن خضوع أهل سبأ لسلطان بلقيس.

وقوله: "وأوتيت من كل شيء" كناية عن بسطة الملك وسعة السلطان.

وقوله: "ولها عرش عظيم" كناية عن عظمة الشأن والفخامة(٢).

والغرض من هذه الكنايات: تصوير حال تلك الملكة وما من الله به عليها من النعم التي لاتعد ولا تحصى؛ مما جعل قومها يثقون فيها ويخضعون لرأيها، –كما سنرى بعد قليل–.

فهي امرأة حكيمة التصرف تتسم بفكر قويم، وعقل حكيم وزادها تقديرًا ما تنعم به من قوة الملك والعز والجاه الذي رفع من شأنها.

---

(١) الكشاف للزمخشري" عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تحقيق محمد مرسي عامر، جـ٤ ص ١٩٦ بتصرف، دار المصحف، مطبعة عبد الرحمن محمد.

(٢) التعريض في القرآن الكريم جـ١ ط: أولى، ص ٥٥٥، د. ابراهيم محمد عبدالله الخولي.

ثم تمضي بنا القصة إلى مشهد آخر، فبعد أن قدم الهدهد كل ما رآه من ملكة بلقيس، وكان سببًا لتغيبه عن المملكة، فأرسله سليمان بكتاب إلى الملكة ليتيقن من صدق كلامه، فلما وصل الكتاب إلى الملكة كيف استقبلته، وكيف كان رد فعلها تجاهه، فلنرى كيف صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف "قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيم"[النمل:٢٩]

تلك هي لغة الملوك الموجزة التي تشى إلى محدثيها برغبتها تلويحًا لا تصريحًا، ولخطورة القضية التي تعرضها ترك العطف بين عبارتها وبين العبارة السابقة عليها، كما نادت قومها "بالياء" الموضوعة لنداء البعيد، مع كونهم بين أيديها؛ [وذلك تنزيلا للقريب منزلة البعيد، ولشدة حرصها على إقبالهم فصاروا كالعبيد؛ لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء، صارت كل ساعة قبل وقوعه غاية في البعد)[١].

- وكان من حصافتها أن نادت الملأ دون الناس أو القوم، لكون الأشراف والعظماء هم أهل الرأي والمشورة لدى الملوك، وآراؤهم ملزمة لغيرهم من الناس.

ولما كان الأمر غريبا بالنسبة لهم، أكدت لهم كلامها " إني".

- كذا عظمت من شأن هذا الكتاب ببناء الفعل للمجهول" ألقي"، [فحذف الفاعل رغم رؤيتها له ربما لضآلة شأنه، وفي الحذف تنشيط للذهن، وإعمال للفكر، وإحالة للنظر][٢].

ومن دقة اختيار الألفاظ استخدام لفظ "كتاب" دون غيره؛ لدلالته على أنه مكتوب فيه رسالة، بخلاف الدفتر فيمكن أن يكون بياضًا، وبخلاف

(١) من بلاغة النظم العربي د. عبدالعزيز عرفة، جـ٢، ص ١٣٧.

(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش، جـ ٧ ص ٢٠٢.

المصحف الذي يكون جملة أوراق صحفت أي جمعت، أما الكتاب فيكون ورقة واحدة وبها كتابة](١).

وتنكير اللفظ "كتاب" أفاد تعظيم المشتمل عليه، ولم تنته من إبراز عظمة هذا الكتاب بكل ما ذكرته، بل وصفته بكونه" كريم".

وبعد أن ذكرت لهم صفة هذا الكتاب، شرعت في بيان محتواه فقالت "إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"[النمل: ٣٠]

مستأنفة الكلام، مسرعة من قص مضمونه، مؤكدة لكلامها بـ "إنه"، ومن حصافة هذه المرأة أن قدمت صفة الكتاب ثم مرسله، ثم تحدثت عن مضمون الرسالة، لتهيئ الملأ إلى قبول المضمون، [فالتعريف بصاحب الكتاب أولًا يجعله أجدر بالقبول؛ لأن أكثر الخلق يعرف الحق بالرجال](٢)**،**

- وتعريف المولى –عز وجل – بـ "الرحمن الرحيم" بعد تعريفه باسم هو أفضل الأسماء وأجلها "الله"، وذلك من "ذكر الخاص بعد العام "، وهو من أنواع الإطناب، إشارة إلى أنه المدعو إليه بالعبادة بما وجب له لذاته وما استحقه بصفاته](٣).

ثم ذكرت الهدف من هذا الكتاب ومقصوده، في عبارة قاطعة، حاملة معنى التهديد والوعيد القاطع "أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِين"[النمل: ٣١]

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص ٢٤١.

(٢) نظم الدرر من تناسب الآيات والسور للبقاعي، جـ ١٤ ص ١٥٨.

(٣)السابق.

- عبارة في غاية القوة والإيجاز، فيها تحذيرٌ لملكة سبأ من أن تحاول الترفع على الخضوع لسليمان والطاعة له، كما هو شأن الملوك، ولما كانت تلك الجملة تفسيرًا لسابقتها، فصلت عنها لكمال الاتصال بينهما.

وجمع سليمان في كتابه الموجز بين نهي خرج إلى معنى التهديد "أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ"، وأمر خرج إلى معنى التهديد أيضًا "وَأْتُونِي مُسْلِمِين"، فجمع بين جملتين إنشائيتين؛ لاتحاد المسند إليه، وصدور الكلام من سيدنا سليمان، واتحاد الهدف منهما وهو الدعوة إلى التوحيد، فالعطف بينهما "للتوسط بين الكمالين".

- ولما أراد سليمان – عليه السلام- أن ينهاهم عن التكبر، شبهه بالعلو المكاني، ثم حذف المشبه، وادعى أن التكبر فرد من أفراد العلو المكاني، ثم استعير العلو للتكبر، واشتق من العلو الفعل (تعلو) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

- ولا تزال تلك العبارة الموجزة تفرز لنا من العسل قطوفًا وألوانًا متمثلة في المجاز المرسل من قوله:" وَأْتُونِي مُسْلِمِين" لعلاقة اللزومية، حيث يلزم من الإتيان الطاعة والانقياد.

ولما عرض السياق الكريم رسالة سليمان، تشوقنا إلى معرفة ردها، فجاء النظم القرآني يلبي إلينا هذا المطلب ويزيل من أنفسنا هذا التطلع وتلك الدهشة، فقال: "قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون"[النمل:٣٢]

- فيقص علينا ذلك المشهد كيف تعاملت بلقيس مع الحدث بحكمة وذكاء القادة، ورصانة الزعماء، وأمانة المسئولين، فحافظت على سلامة رعيتها وأمن بلدها، وثروات وطنها.

- ولما أثارت الجملة السابقة سؤالًا عن رد بلقيس على تهديد سليمان-

فصل النظم القرآني إجابة بلقيس، فجاءت بدون عطف، فتوجهت إلى قومها مباشرة مستغيثة بهم لتعلي من شأنهم، وتستميلهم إليها، [وقد استعملت أسلوب النداء في معنى الاستغاثة؛ على سبيل المجاز المرسل، من استعمال العام في الخاص، لأن صيغ النداء موضوعة لمطلق طلب الإقبال، لا لخصوص الإغاثة](١).

- كما أن مفردات هذه الآية توحي بمدى حذقها وكياستها وذلك من خلال الآتي:

١) التعبير بـ [أفتوني] حيث استعارت الفتاء في السن الذي هو صفوة العمر للحكم الصائب، ثم ادعت أن الحكم الصائب جنس من الفتاء في السن، ثم اشتق من الفتاء (أفتوني) بمعنى (أشيروا علي بحكم صائب في هذا الأمر)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ولقد آثر النظم القرآني أن يعبر عن المشورة بالفتوى، وذلك لفخامة هذا الأمر وشدته وخطورته، فهو لا يحتاج لمجرد مشورة وإبداء رأي وكفى، ولكن لا بد فيه من القوة المماثلة لقوة الفتوى.

٢) كذا أضافت الأمر إلى نفسها "أمري" لكونها المخاطبة بكتاب سليمان، ولأنها القائمة بما يجب إمضاؤه من شئون البلاد.

٣) والتعبير بـ " مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا " يوحي بأن هذا ما اعتادت عليه في كل شئونها.

فضلا عن أن التعبير بـ (قاطعة) له دلالة على قوة شخصيتها ومضاء عزمها، وعدم التردد في الأمر، حيث شبهت إمضاء القرار وتنفيذه بالقطع، بجامع عدم التردد في النفاذ، وادعي أن إمضاء القرار من جنس القطع،

(١)الإيضاح للخطيب القزويني ضمن شروح التلخيص حـ٢، ص ٣٣٧.

ثم اشتق من القطع قاطعة، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وهذه الاستعارة تحمل من طرف خفي حال ملكة سبأ عندما جاءها خطاب سليمان – عليه السلام –، فجمعت أشراف قومها وأخذت رأيهم، ثم أخذت تفكر فيما أشاروا عليها به.

ونلمح من وراء ذلك ميلها إلى إتباع سليمان وملاينته، ولما قوي ذلك الأمر في نفسها، عزمت على فعله، فحسن أن يعبر عنه بقطع الأمر.

٤) بالإضافة إلى تنكير [أمرًا] يوحي بالتعميم والإيهام، فهي عاقلة حكيمة مستشيرة لقومها، لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها، ولا تعرض شعبها لأخطاء المستبدين، فهي تشاورهم في جميع الأحوال، فما بالنا بهذه الحالة الخطيرة

٥) وإن صرحت الملكة برغبتها في مشورة قومها فيما سبق من عبارات، فنراها هنا قد جاءت بالمعنى نفسه مرتديًا ثوب الكناية، فقالت [حتى تشهدون] كناية عن صفة المشاورة، فلم تكن تفعل أمرًا يخص الرعية حتى تعرفهم به وتشهدهم عليه [إما بالقول أو بالسكوت وعدم الإنكار، لأن حضور المعدود للشورى في مكان الاستشارة مغن عن استشارته، إذ سكوته يعد موافقة][(١)]. وهذا المعنى الذي عرضته الكناية لا يمكن عرضه ولا تصويره بغيرها، فالأسلوب الكنائي أبلغ من الحقيقة؛ لما فيه من عرض المعنى بالدليل القاطع والبرهان الساطع، فلو سلك النظم بالمعنى طريق التصريح، لضاعت أغراضه، وتوارت دقائقه.

وعلى طريقة المحاورات جاءنا النظم الكريم بإجابة سريعة لما أجابها به قومها وقال: "قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ ٩ ص ٢٦٣.

مَاذَا تَأْمُرِين"[النمل:٣٣]

فعبر النظم القرآني عن فرط شجاعة قوم بلقيس كما جاء على لسانهم تعبيرًا كنائيًّا وقالوا: "أولوا قوة" وهو "مجاز مرسل علاقته المسببية" أي أصحاب الوسائل التي تعطي القوة، ثم جمع بالواو على تلك الصفة صفة أخرى مؤكدة لمعنى الشجاعة والثبات، فقال" وأولوا بأس شديد" فأكد لها قومها وخاصتها قوة بأسهم وقدرتهم على خوض القتال وعدم الاستسلام لتهديد سليمان – عليه السلام– إلا أنهم في نهاية الأمر أرجعوا الأمر إليها، فهي المقررة أولا وأخيرًا بحكم منصبها، وإيمانًا منهم بحكمتها.

وإن كان من كلامهم هذا تعريض بميلهم إلى خيار الحرب والقوة، كما أن حذف المفعول ومتعلقه أي "تأمرينا به" يعطي معنى التسليم التام إليها، فلم يتوقف تفويضهم لها على أمر دون الآخر، [فالحذف إضافة إلى دلالته على الإيجاز يحملنا على نشاط الذهن والتفكير في المحذوف، لنقف على دلالات التراكيب، فنستوضح المعنى ونستأثر به، وذلك مما يقوي المعنى ويجعله يصل إلينا في صورة مؤثرة مقنعة](١).

ولما أحست الملكة في قولهم هذا ميلا إلى الحرب، أخذت في تصحيح رأيهم بطريق القياس فقالت: "قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ" [النمل:٣٤]

فسارعت ببيان تلك الحقيقة، تاركة عطف الكلام بعضه على بعض، وكانت بلقيس ناشئة في بيت من بيوت الملك، لذا كان طبيعيا أن تعرف أحوال الملوك وإفسادهم للقرى التي يدخلونها.

(١) إعراب القرآن وبيانه، جـ ٧ ص ٢٠٣؛ خصائص التراكيب دراسة تحليلية لعلم البيان، د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة.

ومقصودها من هذا الكلام التلويح بأن السلم أجدى من الحرب، وأن الملاينة مع سليمان – عليه السلام – أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة، فجاء ردها مشبعًا حكمة وتعقلا، وذلك شأن الملك الذكي الفطن الذي لا يخالف أهل مشورته إلا عن طريق الحجة والدليل، وبيان أسبابه ودوافعه، فينصرفوا إلى تنفيذ ما يراه، ويسيروا في الطريق الذي رسمه عن طيب نفس ورضا خاطر، لا عن قهر وتسلط واستبداد.

– ومن براعة التعبير في العبارة السابقة قوله: "أفسدوها". وجعلوا: بالصيغة الماضية، فمن خلال استحضار صور الإفساد والمذلة فأبرز هذا التعبير ما سيكون في معرض ما هو كائن.

– كما أن استخدام "إذا" الشرطية دون "إن"، أفاد نفس المعنى لدلالتها على تحقق الوقوع، ولنضيف إلى ذلك دلالة الطباق في قوله " أعزة، أذلة " فالمقارنة بين حالة العزة التي يرغدون فيها وحالة الذل المحدقة بهم، تجعلهم يميلون إلى ما تميل إليه ملكتهم من الملاينة.

– فضلا عن قوله تعالى " وكذلك يفعلون"، فأبرزت هذا الفعل في صورة العادة الثابتة التي لا تتغير، [ويحتمل أن تكون جملة تذييلية من كلام بلقيس، لتأكيد مضمون كلامها على طريق الاعتراض التذييلي، استدلالا على المستقبل بحكم الماضي][(١)].

ثم أخذت في عرض خطتها التي ستؤكد لها أملك هو أم نبي، فهي تريد أن تختبر سليمان – عليه السلام – بإرسال هدية وانتظار رده لتقضي في أمره، فجاءت بنتيجة لتلك المقدمة، وذلك في قوله تعالى: "وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُون"[النمل:٣٥]

(١) فتح القدير للشوكاني جـ ٤ ص ١٤٧.

وجاء العطف ليؤكد اشتراك الجملتين في قضية واحدة، وأن إرسالها للهدية بسبب ما سبق وأن أظهرته عن حال الملوك.

كما أكدت على عزمها هذا من خلال إضافتها الإرسال إلى نفسها" إني"، فضلا عن التعبير بالجملة الاسمية ودلالتها على الثبات، أي لا يثنيها عن عزمها أي شيء.

واختيار " مرسلة" سوى غيرها من الألفاظ التي لها الدلالة نفسها، كالبعث مثلا؛ [لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة، أو ما يجري مجراها، بخلاف البعث يجوز فيه أن يبعث الرجل إلى الآخر لحاجة تخصه دون المبعوث إليه](١).

- ولتتم المقابلة بين كلامها وكلام سليمان – عليه السلام – الذي جاء بضمير الجمع "ألا تعلوا علىّ" جاء كلامها أيضا بضمير الجمع "مرسلة إليهم"، فقصدت بالجمع سليمان وقومه.

- ولما كانت الهدية من ملكة بقدر قيمة ملكة سبأ، مرسلة إلى ملك بقدر سليمان – عليه السلام – لم يكن لذهن أن يتخيل حقيقة هذه الهدية؛ لذا حذف المفعول، فلو عينتها لفقد الكلام قيمته، فالذهن يذهب مع الحذف إلى آفاق غير محدودة ليتصور كل ما يدور بخلده من شأن هذه الهدية، وإرسال الهدية كان بغرض الوقوف على حقيقة سليمان؛ [لأن الهدية تلين القلب وتعلن الود، فقد تفلح في دفع القتال، فإن قبلها سليمان فهو أمر الدنيا، وإن لم يقبلها فهو أمر العقيدة الذي لا يصرفه عنه مال

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٢٢٢.

ولا عرض من أعراض الأرض](١).

- والملكة لم تكن واثقة من قبول الهدية أو هذا ما عبر عنه النظم القرآني بتقديم حرف الجر" الباء" على جملة الخبر، فأصل الكلام " فناظرة ما يرجع المرسلون به".

ثم تنتقل بنا القصة إلى مشهد آخر لترى رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان-عليه السلام – ونرى رد فعله إزاء ذلك، قال تعالى: "فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون"[النمل:٣٦-٣٧]

وجاء هذا المشهد طاويًا أحداثًا عديدة سبقته، من إعداد الهدية مع رسول بكتاب، "فلما جاء سليمان ....." والتعبير بالمفرد "جاء" مع كون المرسل ركبًا بهدايا، بدليل قولها: " بم يرجع المرسلون" بصيغة الجمع، [لأن المراد هو الجنس، أي جاء الركب المعهود في إرسال هدايا أمثال الملوك، وقرأ عبدالله بن عمر " فلما جاءوا" وقرأ "ارجعوا" فجعله عائدًا على قوله "المرسلون"](٢).

ولم يكن استنكار سليمان لتلك الهدية ترفعًا عن قبولها، ولكن رفضًا للمقصود منها، فهي أرادت أن تصرفه عن بث سلطانه إلى مملكة سبأ لما قال لها: [ألا تعلو على وأتوني مسلمين].

والخطاب في قوله" أتمدونن بمال" متجه من سليمان – عليه السلام –

---

(١) في ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب جـ ٥ ص ٢٦٤ ط ١٧، دار الشروق ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٢) فتح القدير: جـ٤ ص ١٣٨، البحر المحيط جـ٧ ص ٧٤.

إلى الرسول والمرسل تغليبًا للحاضر على الغائب، وصدر سليمان – عليه السلام – رده مستنكرًا منهم موبخًا لهم على هذا الفعل، وحقر شأن هذا المال الذي قصد منه صرف نبي الله عن قصده، وذلك من خلال مجيئه نكرة.

ثم جاء النظم القرآني على لسان سلميان – عليه السلام – بتعليل لهذا الإنكار والرفض لتلك الهدية بقوله: "فما آتاني الله خير مما آتاكم".

ولما كان التقدير: لكنكم لا تعلمون أن هديتكم مما يزهد فيه لتقيدكم بظاهر الحياة الدنيا، نسق عليه قوله: "بل أنتم بهديتكم تفرحون"[(١)]، فأضرب عن إنكار الإهداء وتعليله، إلى ذممهم بالاغترار بالأمور الدنيوية فقال: "بل أنتم بهديتكم تفرحون"، والتعبير بالمضارع (تفرحون) أفاد أن هذا حالهم في الماضي والحاضر.

ولم يتوقف تأكيد المعنى عند هذا، بل زاده تأكيدًا بمجيء أسلوب القصر، بأن قدم المسند إليه على الخبر الفعلي، والمعنى بل أنتم تفرحون بهديتكم لا أنا، وهو قصر صفة على موصوف، قصرًا إضافيًا، وبعد أن استنكر سليمان – عليه السلام – إرسالها لتلك الهدية نراه مهددًا متوعداً حيث قال: "ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

[وأفرد الضمير "ارجع" إرادة لكبيرهم، وكان قد جمع الضمائر الخمسة السابقة لتلك الآية، لاختصاص الرجوع بالرسول، وعموم ما عداه من الأفعال السابقة، الإمداد، والإيتاء، والإهداء والفرح"[(٢)].

---

(١) نظم الدرر من تناسب الآيات والسور للبقاعي، جـ ١٤ ص ١٦٢.

(٢) تفسير ابن السعود جـ٦ ص ٢٨٦.

كذا جمع الضمير من "إليهم" تعميمًا لكل من يهتم بأمرها وينطوي تحت لوائها.

والتهديد عادة ما يصحبه القسم؛ لذا قال سليمان – عليه السلام –: "فلنأتينهم" أي والله لنأتينهم – وفي ذلك تأكيد للوعيد الشديد الذي انطوى عليه الخبر، وحلف سلميان –عليه السلام– كان معلقًا على شرط حذف لدلالة المقام عليه، أي إن لم يأتوا مسلمين. [والأصل في معنى" قبل" المقابلة فأطلق على الطاقة على سبيل المجاز المرسل لعلاقة اللزومية، لأن الذي يطبق شيئًا يثبت للقائه أو يلزم عن الثبات المقابلة، فإن لم يطقه تقهقر عن لقائه](١).

ثم نرى سليمان– عليه السلام – متماديا في تهديدهم، فلم يكتف بمحاربتهم بهؤلاء الجنود الذين لا يقاوموا، بل هددهم في أمنهم في أوطانهم عاطفًا الطريقتين معًا "ولنخرجنهم" فجمع بين الإتيان بالجنود والإخراج من الديار، وذلك قمة الوعيد، والثقل الذي أضافته نون التوكيد يتناسب مع ثقل الإخراج بقوة.

ثم توجه سليمان إلى أفراد مملكته من الجن والإنس والطير قائلاً: "قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِين".[النمل:٣٨]

واستفهم عن ذلك الذي سيلبي نداءه بقوله "أيكم"، [لأن أِي تستعمل في أحد المشاركين في أمر يعمهما، وتكتسب معنى ما تضاف إليه](٢). **وكان لاختيار [يأتيني] دون سواه دلالة على القدرة والعظمة التي يتمتع بها أفراد**

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني، ص ٤٣٨ طبعة ١٩٩٧م وحققه ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٨٨هـ.

(٢) من بلاغة النظم العرب جـ٢ ص ١٠٢.

مملكته [لأن الإتيان يطلق على المجيء بالأمر، وبالرغم من الآتي][1].

وهناك أقوال مختلفة في اختصاص العرش دون غيره من مملكتها الواسعة، [إما لتميزه عن باقي مملكتها، وكونه أخص شيء في المملكة، أو لكونه محمولًا معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه، وقيل: إن العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل أن تصل إليه][2].

وهنا تسابق أفراد المملكة كل منهم يريد أن يحظى بتلبية طلب ملكه وبنيه، حتى تكون له منزلة عنده، وذلك ما صوره قوله تعالى: "قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِين * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم"[النمل:٤٠]

وتمشيا مع جواب المحاورة، جاءت الآيات بدون واو عطف لشبه كمال الاتصال، فالمبادرة والسرعة في هذا المقام هما الغالبان فالموقف جد خطير، لا يحتمل التأخير، فلابد من تنفيذ أوامر سليمان – عليه السلام ، ولابد من ردع لتلك الملكة التي تجرأت وعرضت هدية على نبي الله، وإن كانت قد أعلنت انقيادها ومجيئها فهو يريد أن يظهر لها معجزة تجعلها تسلم بصحة نبوته، وتعظم قدرة الله تعالى.

- **وكان رد العفريت مناسبًا لمقام السرعة [قبل أن تقوم من مقامك] أي**

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٤ ص ١٩٧، التحرير والتقدير، جـ ٩ ص ٢٧٠.

من مقام الحكم ومجلسه، [وكان سليمان يجلس فيه من الصبح إلى الظهر][1]. ووثق كلامه وأكده بأكثر من مؤكد بقوله عاطفًا " وإن عليه لقوى أمين" وقوله " لقوى أمين" تناسب في الأطراف، لأن حمل عرش بلقيس، يحتاج إلى القوة، لكونه ضخمًا، كما يحتاج إلى الأمانة، لنفاسته وتحليه بألوان النفائس والجواهر.

- ولما كانت القصة لإظهار فضل العلم الموجب للحكمة، حكى تعالى قوله "قال الذي عنده علم".

والذي عنده علم من الكتاب" جملة الصلة أوحت بعظمة الموصول، وأكد تلك العظمة التعبير بـ الظرف "عنده" مما يدل على شدة تمكنه من العلم، فهو ماكثٌ لديه مستقرٌ داخله، والتعبير كناية عن صفة رسوخه في العلم، وفضل العلم وعظمته برز من خلال تنكير" علم " فعظمة العلم تتضح من كل جانب من جوانب النظم الكريم.

- وتلك المناظرة التي حكاها النظم القرآني بين عفريت الجن، ومن عنده علم من الكتاب، [ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم مالا يأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة؛ لقوله: " عنده علم من الكتاب" فذكر في هذه القصة مثلًا لتغلب العلم على القوة][2].

- وعبر الذي عنده علم من الكتاب عن شدة سرعة تلبيته لطلب نبيه لقوله: "قبل أن يرتد إليك طرفك"، فاستعار ارتداد الطرف للسرعة استعارة تمثيلية، بحيث يشبه هيئة السرعة في حضور العرش بهيئة ارتداد الطرف بجامع السرعة، وارتداد الطرف كناية عن الإسراع.

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٤ ص ١٩٧.

(٢)التحرير والتنوير ص ٢٧١.

وتحقيقًا للسرعة المرجوة في هذا الأمر سارع النظم الكريم بقوله: "فلما رآه مستقرًا عنده" كأنه لم يقع بين الوعد وبين رؤيته – عليه السلام – للعرش شيء ما أصلًا، وتقييد الرؤية بالاستقرار عنده، تأكيد لهذا المعنى، وبيان أن الرؤية والاستقرار حقيقية ثابتة.

– ولما كان هذا الحديث أمرًا جللا يدعو إلى الإعجاب والزهو سارع نبي الله بإرجاعه إلى خالقه وقال: "هذا من فضل ربي" معظمًا هذا الأمر من خلال تعريفه باسم الإشارة الموضوع للقريب ومن إضافته إلى العظيم الجليل "فضل ربي".

– ثم علل ذلك الفضل بقوله " ليبلوني أأشكر أم أكفر"، والابتلاء [يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية][1]. واستعمال الابتلاء من أجل الشكر مجاز، حيث شبه استخراج الشكر من المبتلى بإبلاء الشيء، أي استخراج قوته بإذهابه إلى حال البلي، بجامع التحول من حال إلى حال، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بالابتلاء، على سبيل الاستعارة المكنية. فشكر النعمة: إرجاعها إلى الله دون حول منه ولا قوة، والكفر بأن ينسب الفضل فيها لنفسه، أو تقصير عن أداء واجب الشكر.

– والاستفهام زاد النظم قوة وإثارة، لأن المعنى إذا ظهر في صورة المستفهم عنه، تطلعت النفس إلى إجابته، فيقوى في النهي وتتشوق إليه النفس، وزاد المعنى وضوحًا وجمالًا ذلك الطباق بين "أأشكر أم أكفر" [والجمع بين المعاني المتضادة والتأليف بينها في أسلوب واحد، يلفت النظر ويسترعي بالانتماء إلى تلك القدرة التي نسقت وألفت بين هذه المتضادات، وهذا مما يعمق الفكر ويثير الشعور، ويجعله يبحث عن

(١)الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص ١٧٨.

المعاني والأفكار][1].

- وعبر النظم الكريم بالشكر دون الحمد؛ [لأن الشكر هو اعتراف بالنعمة على سبيل التعظيم للمنعم، والحمد هو الذكر بالجميل على سبيل التعظيم أيضا، إلا أنه يصح على النعمة وغيرها، بخلاف الشكر، والحمد لا يكون إلا لله، بخلاف الشكر][2].

وترغيبًا على شكر النعم وتأكيدًا على توفية حق شكرها، جاء النظم القرآني بأسلوب القصر " ومن شكر فإنما يشكر لنفسه "، فقصر عاقبة الشكر على الشاكر قصرًا إضافيًا للصفة على الموصوف[3]، فحين يعلم المرء أن عاقبة عمله ستعود إليه ويجني ثمارها بنفسه تزداد همته لهذا العمل، ويسارع فيه ليجني ثمرته. كما نراه وضع المظهر موضع المضمر" فإن ربي....." دون أن يقول " فهو غني كريم" وذلك تأكيدًا للاعتراف بالفضل المحض المشار إليه في قوله تعالى: " فضل ربي" فضلا عن التعظيم والتلذذ بذكر لفظ "ربي" فذكره لا تمله الألسنة مهما نطقته، كما أن وضع المظهر موضع المضمر لتربية المهابة في النفوس من عاقبة الكفر، والحث على شكر النعمة، وهذه الجملة [ومن شكر.....] جملة تذييلية من جملة كلام سليمان لتأكيد المفهوم السابق.

- ولما تشوقت النفس إلى معرفة ما يفعله سليمان بالعرش بعدما استقر عنده، جاء الجواب بدون عطف قائلًا: [قال نكروا لها عرشها تنظر أتهتجي أم تكون من الذين لا يهتدون].

---

(١)الألوان البديعية، د. حمزة الدمرداش ص ٢٦٣.

(٢)الفروق اللغوية، ص ٣٥.

(٣) معاني التراكيب، د/ عبدالفتاح لاشين، ص٢٩، دار الكتاب الجامعي.

- فالمحاورة بين سليمان وقومه كانت سجالًا متواصلة، لم يتخللها عطف، [وسبب تغير معالم العرش مختلف فيه، قيل لمعرفة ثبات عقلها، أو معرفة قدرة المولى سليمان – عليه السلام–][1] وصدق نبوته.

- ويمكن المواءمة بين تلك الآراء عن طريق الدلالة، فلو عرفت عرشها بعدما نكروه لها، كان ذلك دليلًا على رجاحة عقلها التي تجعل دعوتها إلى تصديق نبوة سليمان – عليه السلام– أمرًا محققًا، خاصة بعدما رأت تلك المعجزة البينة من تقدم عرشها – والتعبير باسم الموصول [الذين لا يهتدون] له أثر بالغ في شأن الدعوة أبلغ من الضالين؛ لما فيه من التلطف في مجال الدعوة، كما أن التعبير بقوله " الذين لا يهتدون" أقوى في نفي "الاهتداء من – لا تهدي –؟ لما فيه من معنى التعمق في هذا الوصف، والرسوخ في سلك أولئك الذين لم يهتدوا، لأن من لا تؤثر فيه تلك المعجزة وتهديه إلى الإيمان بنبوة سليمان لاشك في كونه له رسوخ في عدم الإيمان منذ أمد بعيد، وطباق السلب بين [تهتدي – لا يهتدون] أبرز تلك المقارنة بين الحالتين.

ويستمر النظم القرآني في سرد مشاهد تلك القصة، فيعرض أمامنا صورة بلقيس والعرش أمامها بعد تنكيره فيقول: "فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين". [النمل:٤٢]

- وإشارة لسرعة مجيئها وانقيادها لسليمان، حذف النظم الكريم أكثر من جملة تخبر عن تنكير العرش ورؤيتها له، كما عطف بالفاء لتعطي الدلالة نفسها على السرعة.

ولم يوجه لها السؤال بطريق مخصوص من طرق الاستفهام المعتادة حيث

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، ص ٢٠١.

قال (أهكذا عرشك) فوجه إليها سؤالًا مكونًا من ثلاث كلمات حرف التنبيه، كاف التشبيه واسم الاشارة، وقولها: " كأنه هو" تشبيه مرسل عدلت فيه عن مقتضي السؤال بأن تقول: هو هو، [وذلك لدلالة (كأن) على قرب الشبه، فالتبس عليها الأمر، فهي لا تجرم بـ كونه هو هو ولا بكونه شبيها له فقط فتقول هكذا هو، فعدلت إلى كأنه هو لمطابقتها لحالها](١).

وردها هذا دليل على حكمتها وفطنتها، فكانت إجابتها غاية في دقة الفكر، ورجاحة العقل فلم تقطع من المحتمل للأمرين فشبهت عليهم كما شبهوا عليها](٢).

- (وإنما تركت الأمر مبنيا على الظن والتشبيه، لكي يناسب الجواب السؤال، مما يدل على فطنتها وشدة فراستها، وثباتها أمام المفاجآت التي لم تكن تتوقعها](٣).

وقوله تعالى: "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين" (قيل إنه من كلام بلقيس والضمير يعود إلى المعجزة، وعلى هذا يكون معطوفًا على قولها: "كأنه هو" وقيل هو من كلام سليمان – عليه السلام – وأتباعه، ويكون ضمير" قبلها" راجعًا إلى بلقيس، ويكون غرضهم هو شكر الله أن خصهم

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش جـ ٧ ص ٢١٨.

(٢) تفسير النسفي جـ ٣ ص ٢١٤، للعلامة الجليل أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وأولاده.

(٣) التصوير البياني، دراسة تحليلية لعلم البيان ص ٢٨٤ د، محمد أبو موسي، مكتبة وهبة.

بنعمة التقدم في التوحيد](١).

ثم جاء النظم الكريم بما هو عذر لبلقيس في بيان سبب عبادتها للشمس على الرغم من رجاحة عقلها، فقال: "وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين". [النمل:٤٣]

وفي إسناد الصد للمعبود مجاز عقلي، لأن الشمس لم تقم بصدها ومنعها من التوحيد، ولا شك أن عبادة الشمس من دون الله أمر مهول، لذا عُرف باسم الموصول "ما" بدلالتها على المبالغة في شدة الأمر.

وقوله تعالى "إنها كانت من قوم كافرين" تعليلٌ لتلك العبادة المسببة للصد، أي أنها كانت من قوم راسخين في الكفر، فهي منحدرة من سلالة المشركين، فهو منطبع في نفسها بالوراثة، وقوم كافرون حقيقيون بالاحتقار الذي أوحى به تنكير لفظهم.

ثم تمضي بنا الأحداث إلى المشهد الأخير من مشاهد تلك القصة المتكاملة الأركان، المتلاحمة النسيج، البارعة التصوير وتقع مفاجأة أخرى غير العرش – قد أعدها سليمان للملكة، لم يكشفها السياق، كما كشف عن الأولى، وهذا لون من ألوان التنوع في عرض القصة القرآنية، فقال: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين". [النمل:٤٤]

- [لقد كانت المفاجأة قصرًا من بلور أقيمت أرضيته فوق الماء وظهر وكأنه لجة، فلما قيل لها ادخلي الصرح حسبت أنها ستخوض في تلك

---

(١) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زاد على تفسير البيضاوي جـ٣ ص ٤٩٤ وتفسير الفخر الرازي ص ٢٠٠.

اللجة، إذ كشفت عن ساقيها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن حقيقتها، فقال: "إنه صرح ممرد من قوارير"](١).

[والأمر في قوله: "ادخلي" على حقيقته إن كان القائل هو سليمان أو أحد أفراده، وإن كان من أحد أتباعها فيكون خارجًا إلى معنى النصح والإرشاد](٢). **وإن كان الأقرب للواقع أن يكون الأمر من سليمان؛ لأن الملوك لا يأتمرون إلا من أقرانهم أو من هم أعلى منهم درجة كالأنبياء. ولم تتمكن من المخالفة وعدم الدخول لجلال الموقف وهيبته ومباغتته.**

[وبنى لها سليمان هذا الصرح؛ ليزيدها استعظامًا لشأنه، وتحقيقًا لنبوته](٣).

ولشدة صفاء الزجاج المصنوع منه الصرح واتصال الماء بسطحه الأسفل، مما يخيل للناظر أنه ماء كثيف، عبرت عن هذا بـ "حسبته لجة" بأسلوب التشبيه، حيث شبهت صحن الصرح المصنوع من الزجاج والماء يجري من تحته" باللجة" أي الماء الكثير، وعزم الملكة على خوض تلك اللجة – كما تظنها فيه دليل على تمام استسلامها وخضوعها لسليمان مهما كان في الأمر من خطورة، وكناية عن شدة الأمر عليها " كشفت عن ساقيها" وربما كان تعبيرًا حقيقيًا خشية ابتلال ثيابها.

وتتجلى لنا روعة النظم القرآن في ألفاظه ومعانيه في اختياره الفعل الماضي "حسبت – كشفت" مما يجعل الصورة ماثلة أمام أعيننا، تلك الملكة العظيمة، والدهشة تملؤها لظنها أنها تخوض في اللجة والرهبة

---

(١) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب جـ٥ ص ٢٦٤٣.

(٢) التحرير والتنوير جـ ٩ ص ٢٧٥.

(٣) تفسير أبي السعود جـ ٢٨٩، البحر المحيط ص ٧٩٠.

تدفعها إلى كشف ساقيها – مما يتنافى مع هيبتها ووقارها – إنها صورة معبرة أكثر مما تعبر عنه ريشة الرسام الماهر، وتجعلنا وكأننا حاضرون لتلك المشاهد ولا عجب في هذا، فتلك صياغة العلي القدير.

– ثم أفصح سليمان عن حقيقة الأمر قائلًا" إنه صرح ممرد من قوارير" مؤكدًا كلامه بـ "إن و اسمية الجملة" لكون الخبر أمرًا عظيمًا يحتاج إلى تأكيد وتقرير.

– فلما رأت من الآيات القاطعة بصدق نبوته، ما لا يدع مجالا للإنكار، بادرت إلى الدخول تحت لوائه، وذلك ما عبر عنه النظم الكريم بقوله "قالت رب إني ظلمت نفسي" تاركًا العطف بينها وبين سابقتها لشبه كمال الاتصال لسرعة اعترافها بالحق لما عرفته.

وتصويرًا لسرعة مبادرتها، قالت "رب" دون حرف النداء، كما أن للتعبير بلفظ "رب" دون غيرها من أسمائه تعالى إيلاء بالتسامح والحنو والغفران، كما أكدت بلقيس اعترافها بقولها " إني"، ولم يكن بعد الاعتراف بالذنب إلا الدخول في الحق، فقالت " أسلمت مع سليمان لله رب العالمين" وكان من حسن تعبيرها، وقوة فهمها، أن قالت " مع سلميان" ولم تقل لسليمان، حيث علمت أن الدين لا يكون إلا لله، فالظرفية تقتضي المصاحبة، فضلًا عن ذلك الجرس الموسيقي الذي أعطاه الجناس الناقص بين" أسلمت – سليمان".

– وكما ذكرت صفة الربوبية في مقام من الاعتراف بالذنب [ذكرت الاسم الأعظم الدال على الذات، المستجمع للصفات الموجبة للألوهية فقال" لله" مقرة له بالألوهية على سبيل الوحدانية][1].

(١) نظم الدرر جـ١٤ ص ١٧٢.

ودلالة على فطنة هذه الملكة وحسن بيانها، تلوينها في الأسلوب الذي سلكته، رغبة في لفت الانتباه إليها وإيقاظ الذهن إلى حديثها، وذلك من خلال الالتفات(١)، حيث انتقلت من التعبير بصيغة الخطاب "رب" إلى الغيبة "لله رب العالمين".

فلننظر إلى تصرف تلك المرأة العاقلة الرشيدة، التي أعطاها الإسلام حقها ورفع قدرها وأعلى شأنها، وضرب بها الأمثال لتكون قدوة يحتذى بها ويستفاد منها وينتفع بمشورتها، تلك الملكة التي جنبت قومها ويلات الحروب والدماء بحنكة وحكمة منقطعة النظير، فخلد القرآن الكريم سيرتها، وأعطى لنا العبرة والعظة من قصتها، [فلم يصدها علو شأنها وعظمة سلطانها وما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل، من أن تنظر من دلائل صدق الداعي إلى التوحيد، وتوقن بفساد الشرك، فما يكون من إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الإسلامي إلا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسكهم بالباطل](٢).

- فها هي بلقيس في ملكها وسلطانها، قد أذعنت للحق وأسلمت نفسها لله رب العالمين، غير ناظرة إلى ملك أو لاهية بما بين يديها من جاه أو سلطان، ولابد وأن قومها الذين فوضوها في اتخاذ القرار الذي تراه، قد تبعوها في هذا الانقياد، إذن لا مخرج لنا إلا أن ندخل مع الداخلين في رحاب الله أيا كانت الملهيات وأيًّا كانت الدرجات بين الأحياء.

---

(١) المثل السائر لابن الأثير، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية.

(٢) التحرير والتنوير جـ٦ ص ٢٧٧.

فتلك المرأة الملكة التي أنقذت نفسها وقومها من الشرك والضلال، فكانت نعم القائد والمرشد والهادي.

* * *

وكما تحدث القرآن الكريم عن دور المرأة الملكة بالفعل تحدث أيضا عن دور الملكة زوجة الملك، ودورها في المجتمع وهى امرأة فرعون ملك مصر، وكيف كان لدورها أثر كبير على مجتمعها، وذلك ما ذكره القرآن العظيم في قوله تعالى: "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون"(١).

وهذا الموقف وإن كان داخل نطاق أسرة فرعون، إلا أنه غيّر واقع الحياة الاجتماعية والتاريخية لشعبها ولملك فرعون بأسره، وما كان هذا الموقف إلا بأمر الله تعالى ومشيئته؛ لئلا يقتل موسى ويصبح رسولا يحمل رسالة الحق إلى مجتمع أهلكه الظلم والاستعباد والاستخفاف؛ مما يدفعنا إلى التسليم بأن للمرأة مكانا وقيمة كبيرة في المجتمع إذا كانت في موقع زوجة الحاكم.

ونتفيأ ظلال البلاغة القرآنية لتلك الآية الكريمة ونقف على أسرارها، ولم يذكر القرآن الكريم إلا قول هذه المرأة- مع ضرورة أن تكون هناك حوارات متعددة لكل من في هذا الموقف لكونه هو الأهم في قصة موسى – عليه السلام-

ومبادرتها بالكلام في هذا المقام يوحي بما كان لها من مكانة عند زوجها، فهي لا تهاب الحديث إليه حتى في أصعب اللحظات. وعمد النظم الكريم إلى تعريفها بالإضافة؛ لأن المضاف إليه وهو فرعون هو صاحب قصة

(١) سورة القصص: الآية ٩.

قتل كل مولود، فإن دعته زوجته إلى ترك هذا الوليد فلما له من اختصاص بهذا الأمر.

وقد كانت تلك المرأة ملهمة للخير، وقدر الله نجاة موسى بسببها، وقد قال تعالى في شأنها "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين"(١).

وكان من حكمتها ورجاحة عقلها أن صدرت قولها بما يدخل السكينة والبهجة في نفس زوجها حتى يميل إلى كلامها فقالت: "قرة عين لي ولك" وحذف المسند إليه لكونه معلوما بين لديهم، فقد كان بين أيديهم، وتعبيرها هذا كناية عن السرور (تلك الكناية ناشئة عن ضدها وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلما كنى عن الحزن بسخنة العين في قولهم: أسخن الله عينه، أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية، فقالوا: "قرة عين"، فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنى به العرب عن ذلك(٢).

ومن الممكن أن يكون تعبيرها هذا لما رأته من محاسن الطفل لما رأت في جوف التابوت نوراً فرقت له كما قال تعالى: "أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"(٣).

---

(١) سورة التحريم: الآية ١١.

(٢) التحرير والتنوير، ج١٠، ص٧٨.

(٣) سورة طه: الآية ٣٩.

ولشدة تعلقها به وإدلالا منها على زوجها لمكانتها عنده ابتدأت بنفسها فقال "لي" قبل ذكر فرعون، حتى لا يصدر عنه الأمر بالقتل لعدم رغبته في أن يكون له قرة عين. وفي التعبير بالمصدر "قرة عين" ما يوحي بالخير الكثير والنفع العميم الذى تؤمله في هذا الصبي، فقدمت السبب للإبقاء عليه، ثم جاءت بالنهي بعده، فقال: "لا تقتلوه".

فالتفت من خطاب فرعون "قرة عين لي ولك" إلى خطاب الموكلين بقتل الأطفال "لا تقتلوه"، ويجوز أن يراد بضمير الجمع فرعون على وجه التعظيم وما كان لامرأة أن تنهى ملكا أو رجاله إلا إذا كان لها شأن عظيم، تملك به القدرة على الأمر والنهي.

ولما قدم ومهد للغرض بقوله تعالى: "قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ" ثم فرغ من المقدمة بقوله تعالى: "لا تقتلوه" جاء بما هو علة لما سبق "عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا" لذا ترك العطف بين الجملتين.

والترتيب الذى جاء به النظم الكريم يوحي بذكاء تلك المرأة التي بدأت كلامها بتقديم الوازع العاطفي عن القتل وهو المحبة "قرة عين" لشدة تعلقه بالنفس، فهو يشبه المعلوم البديهي، ثم أتت بالوازع العقلي "عسى أن ينفعنا ..." بعد النهي لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعي، فلا تخاف جماح السامع عن النهي ورفضه له[1].

ومن مظاهر فطنة هذه المرأة وتوفيقها فيما أجراه الله على يديها التعبير بالجمع ينفعنا أو نتخذه، فعلى الرغم من انفرادها بالرغبة في هذا الولد إلا أنها جاءت بضمير الجميع وجعلت الرغبة فيه والحاجة المرجوة إليه أمراً

(1) بتصرف التحرير والتنوير، ج١٠، ص٧٩.

عاماً غير مقتصر عليها، حتى تشرك فرعون معها في ذلك الشعور وتلك الرغبة.

ولما كان دافع فرعون إلى قتل الذكور هو الخوف من فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي جاء قوله تعالى "أو نتخذه ولدا" مزيلا لهذا التخوف؛ لأن الربيب المتخذ بمثابة الولد، فلا يرجى منه إلا النفع وذلك قياسا على الأمور الطبيعية في علاقة التربية والمعاشرة والاعتراف بالجميل؛ لذا جاء بعد هذه الجملة بجملة اعتراضية "وهم لا يشعرون" والخطاب عن فرعون وقومه لا يشعرون خفى إرادة الله من إهلاك فرعون بسببه ولكن لماذا آثر التعبير بـ "يشعرون" دون يعلمون مثلا، وذلك لأن هذا من أمور الغيب الخفية التي يتناسب معها الشعور والإحساس.

فهذا أسلوب امرأة مؤمنة تقية مع زوجها الجبار الطاغية فهو يعد نموذجا في الطاعة والملاينة والذكاء في التعامل مع الأزواج على اختلاف شخصياتهم، فهي تعطيه قدرة من الوقار والهيبة وتتسلل إلى مطلوبها ببراعة وحنكة شديدتين على الرغم من تضرعها إلى الله بأن ينجيها منه ومن عمله حيث قالت: "رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[1].

امرأة شاء الله أن يتغير مصير أمة بسببها وهناك الكثير من النساء اللاتي كان لهن أعظم الأثر في تاريخ البشرية.

* * *

(1) سورة التحريم: آية ١١.

المبحث الثاني

المرأة المهاجرة

إن الهجرة من العلامات الفارقة في تاريخ الرسالة المحمدية التي أخذت بدعوة الإسلام إلى طريق مغاير لما كان عليه الأمر في مكة، فقوى شأن المسلمين بها وذاع الإسلام من خلالها وانطلقت منها الدعوة إلى رحاب أوسع وأفاق أعمق وأشمل.

ولما كان للمرأة دور جوهريٌّ في إرساء دعائم الدولة الإسلامية خصص القرآن الكريمة مشاركة المرأة في الهجرة بالذكر، فهذه الهجرة المباركة تميز أهلها تمييزا ظاهرا، فهي بمثابة الإعلان الفعلي والعملي عن صدق الإيمان بالتنازل عن أرض المولد والنشأة وعن الأهل والمال وكل الممتلكات، ثم المغادرة إلى أرض أخرى وليس هناك هدف إلا حب الله ورسوله، فإذا كانت هذه الأمور من الصعوبة بمكان على الرجال، فمما لا شك فيه أنها أشد صعوبة على المرأة ذلك الكائن الضعيف البنية الرقيق المشاعر شديد التعلق بالأهل، ويستمد قوته وجلده ممن يحيطون به أهلا ووطنا، لذا اختص المولى عز وجل هجرة النساء بالذكر فقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم"(١).

وتتجلى بلاغة النداء في قوله تعالى "يا أيها الذين أمنوا" بتلك الجملة

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

الإنشائية الطلبية ينادي المولى عز وجل عبادة وينبههم إلى أمر عظيم عليهم أن يعوه ويأخذوا بما فيه من معاني الهدى.

وقد كثر النداء في القرآن الكريم – من الخالق إلى المخلوق – وفي هذا شيء من التكريم، وقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا" فأرعه سمعك فإن من يعده خيرا يأمر به أو شرا ينهى عنه، وفي اختبار حرف النداء "يا" الموضوعة للبعيد عند كثير من أهل البلاغة للدلالة على أن المنادى فيه شيء من البعد بالمعصية والذنوب عن المنادي جل وعلا، فيلزمه أن يستمع لما ينادى من أجله ليزداد قربا[1].

وعرف المنادى باسم الموصول للدلالة على أن المعروف بالصلة التي هي الإيمان هو أفضل وأهم ما يعرف به، فهو شرفه وفخره الذي يلزمه أن يستمسك به.

وفي قوله "آمنوا" حذف للمتعلق بفعل الإيمان، دلالة على أنهم بلغوا في إيمانهم كل ما أمروا به ولم يتركوا منه شيئًا.

وفي الآية استطراد فبعد أن ذكر في بداية السورة المعاملة التي يجب أن تتبع من الذي يقاتلون المسلمين والذين لا يقاتلونهم أتى الحديث عن المعاملة مع نسائهم على منوال رد العجز على الصدور من حيث المعنى.

وسماهم القرآن "مؤمنات" لتصديقهن بألسنتهن ونطقهن بكلمة الشهادة، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك. فلو جئن مهاجرات حقا فتأكدوا من ذلك من خلال امتحانهن بشتى ألوان الامتحان من الحلف أو النظر في العلامات الدالة على صدقهن، وكان من مقتضيات النظم الحكيم تلك الجملة المعترضة، "والله أعلم بإيمانهن" لبيان أن معرفة خفايا القلوب

([1]) لباب المعاني، د/ محمد حسن شرشر.

مردها إلى الله وحده، ولو لم تأت جملة الاعتراض لكان المعنى على أن المؤمنين مطالبون بمعرفة صدق إيمانهن ظاهرا وباطنا، وهو أمر ليس في مقدورهم، لذا كان يكتفون بتحليف المرأة المهاجرة إلى الله، أنها ما خرجت من بعض زوج، وما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وما خرجت لالتماس دين وما خرجت إلا حبا لله ورسوله[1].

ثم فرع على ما قبل الاعتراض قوله: "فإن علمتموهن مؤمنات"

والمراد بالعلم هنا: العلم الذى تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات وسمي علما إيذانا بأنه كالعلم في وجوب العمل به[2].

فاستعار لفظ العلم "للظن" ثم اشتق من العلم علمتموهن بمعنى ظننتموهن على سبيل الاستعارة التبعية، ولا يلزم الإحاطة بحقيقة إيمانهن والشدة والتدقيق عليهن، فالعلم حقيقة مما استأثر به المولى عز وجل – فهو يعلم السر وأخفى.

فأبرزت الاستعارة وجوب الرأفة على المهاجرات وعدم التدقيق المفرط في الامتحان، فلا سبيل للمؤمنين عليهن إلا بما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر.

فإذا تحقق الشرط وهو العلم بإيمانهن يأتي النهى الصريح "فلا ترجعوهن إلى الكفار" وذلك كناية عن وجوب التفريق بينهم، ثم يأتي النظم بما هو بيان وتفصيل لهذا النهى فيقول: "لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن" وهو من العكس والتبديل[3]، فقدم أولا ضمير الإناث لأن الحديث بصددهم ثم

---

(1) تفسير الكشاف للزمخشري، ج٤، ص٥٠٤.

(2) حاشية الجمل، ج٤، ص٢٣٠.

(3) شروح التلخيص، ج٤ لمجموعة الشراح، طبعة دار السرور، بيروت.

قدم ثانيا ما آخره أولا؛ مما عمق المعنى وأكد وجوب التفريق بين المؤمنة والكافر، وجيئ في الجملة الأولى بالصفة المشبهة وهى حل، المفيدة لثبوت الوصف، لأن الكافرين كانوا يتوهمون أن العصمة التي لهم على أزواجهم المؤمنات مثبتة أنهن حلٌّ لهم، وجملة "ولا هم يحلون لهن" كالتتمة لحكم الجملة الأولى، ودلل على تجدد نفى التحليل ولو كان بعقد جديد وذلك من خلال فعل المضارع "يحلون"[1].

ونتوقف عند مظهر من مظاهر عدالة الإسلام مع غير المسلمين وذلك في قوله تعالى "وآتوهم ما أنفقوا" فهو أمر ملزم للمسلمين بوجوب رد ما أعطاه المشركون لنسائهم المؤمنات من مهور، وعدول النظم عن إطلاق اسم المهور والأجور إلى الإنفاق، أمر فيه دقة ولطف، لأن أولئك النساء أصبحن غير متزوجات ولم تكن هناك صلة تربطهن بمن كانوا أزواجهم.

والمكلف بإرجاع مهور الأزواج المشركين إليهم هم ولاة أمور المسلمين والقائمون عليهم، ثم عطف جملة النهى قصد منه الإباحة على الأمر المتقدم فقال "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" وقيد الإباحة بقوله "إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" أي مهورهن مع العلم أن مهر الزوجة أمر معلوم، فالنص عليه هنا لئلا يظن أن ما دفع للزوج الكافر سقط لاستحقاق المرأة المهر ممن يبغى زواجها، والحكم بانتفاء العلاقة بين المسلمة والكافر يشمل أيضا قطع العلاقة بين المسلم والكافرة، "ولا تمسكوا بعصم الكوافر" كناية عن وجوب التفرقة بينهم، والنهى عن المسك هنا ستار للرابطة بين الزوجين بجامع تعضيد كل من الزوجين لصاحبه، ثم اشتق من المسك تمسكوا بمعنى لا تبقوا معا على سبيل الاستعارة

([1]) بتصرف التحرير والتنوير، ص١٥٨، ج١٣.

التصريحية التبعية.

وقوله تعالى "وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا" فكما تعطوهم مهور أزواجهم المسلمات، فكذلك خذوا منهم مهور زوجاتكم الكافرات، وفي هذا قمة الإنصاف والعدل، والأمر هنا للإباحة، فمن شاء فعل أو ترك "والواو" في قوله "وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا" هي واو المعية، أي إذا أعطوا ما عليهم اعطوهم ما عليكم وإلا فلا.

ثم جاء النظم الكريم بما هو توثيق وتأكيد لكل ما سبق بقوله: "ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" والإشارة لجميع ما سبق في هذه الآية، وهو حكم عدل بين الفريقين فليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر.

وقوله: "يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ" كلام مستأنف أو حال من لفظ الجلالة ولفظ الحكم أقوى في الدلالة على الإلزام من أمر الله أو كلام الله، وقوله تعالى "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[1] تذييل مبين أن ما حكم الله به أتى من علم الله تعالى بحاجات عباده واقتضته حكمته تعالى في إعطاء كل ذي حق حقه.

فقد شاركت المرأة الرجل في أمر الهجرة – ذلك الحدث الجلل في حياة الأمة الإسلامية وامتازت المرأة المهاجرة بقرآن يتلي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي ذلك دليل واضح على البعد الذي أعطاه الإسلام للمرأة وتحركها على ساحة بناء الأمة الإسلامية، فتشكل مجتمع الإسلام بمساندة طرفي البشرية المرأة والرجل.

* * *

(1) شروح التلخيص، ج٣.

الإهداء

المبحث الثالث

المرأة المبايعة

قال تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[1].

إن نزول قرآن يتلى من فوق سبع سموات في مبايعة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–للمرأة المؤمنة – على ما في ذلك من مخالفة لمورثات الجاهلية – تفعيل للمنهج الرباني وإسهام في بناء المجتمع وفقا لهذا المنهج.

وكل ذلك يقع أمانة في الأعناق ومسئولية بالغة الأهمية، لا يخرجنا من عهدنا إلا العمل على ربط المرأة المسلمة اليوم بالأسباب التي كونت المرأة المسلمة بالأمس مع الإفادة من كل تطور يؤدي إلى تحقيق ذلك الهدف، فما تحمله تلك البيعة للمرأة من أهمية، إنما يوحي بما ينتظر المرأة المؤمنة من مهام جليلة ترتبط بتكوين مجتمع جديد وفقا لمنهج إلهي قويم.

ووجه النداء في آية المبايعة إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلافاً لآية الهجرة السابقة التي وجه فيها النداء إلى عموم المؤمنين، لأن ما في آية المهاجرة من تكليف يرجع في كثير من بنوده إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم، فامتحان المؤمنين لنسائهم أمر لا بد من مشاركتهم فيه، وعلى كل فرد من المسلمين الالتزام بالعمل به بخلاف هذه الآية التي

([1]) سورة الممتحنة: الآية: ٢.

تمت بعد الامتحان بتصديق إيمانهن وبعد استقرار أحكام الدين وأمور التشريع، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنوط به تجلية هذا الأمور ومبايعتهن على بنوده.

فنادى المولى عز وجل – رسوله الكريم بأن يقبل معاهدة المؤمنات به، بشرط أن تتوافر فيها بنود معينة، وبدأت تلك البنود بالقاعدة الأساسية التي يقوم عليها التشريع وهى توحيد الله تعالى الخالص من الشرك، لأن أصل كل الشرائع هو صلاح العقيدة.

وقوله "يبايعنك" أي يعاهدنك لأن من عادة الناس حين المبايعة أن يضع أحد المتبايعين يده على الآخر لتكون معاهدتهما محكمة ثابتة، فسميت المعاهدة بيعة تشبيها لها بها في الإحكام والتثبت والإبرام، فإذا التزموا قبول ما شرط عليهم من التكاليف الشرعية طمعا في ثواب الله وخوفا من عقابه وضمن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في مقابلة وفائهم بالعهد صار كل واحد منهم وكأنه باع ما عنده في مقابل ما عند الآخر.

فاستعار المبايعة للمعاهدة وصرح بلفظ المشبه به وهو المبايعة ثم اشتق منه يبايعنك استعارة تصريحية تبعية.

والتعبير بلفظ "المبايعة" يوحى بشدة التمسك والالتزام والرغبة الصادقة، وفي ذلك تقوية لعضد الدولة الإسلامية بأبنائها المخلصين المتمسكين بشريعة الإسلام واكتساب رضى الله تعالى ورسوله. فقد أعطانا أسلوب الاستعارة أسرارا بيانية رائعة متمثلة في هذا اللفظ "يبايعنك" أما لفظ المعاهدة وإن كان يوحي بالحفاظ على المواثيق، إلا أنه خال من تلك المعاني التي أبرزتها الاستعارة، لذا آثرها النظم القرآني دون سواها من أساليب، وبعد أن ذكر القاعدة الأساس، وهى توحيد الله الخالص من كل شرك عطف عليه باقي بنود البيعة بما ينظم السلوك الاجتماعي.

ولما كانت السرقة منتشرة في الجاهلية في النساء أكثر من الرجال بدأ بها، وقتل الأولاد، إما يقصد به الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية ببناتهم، أو إسقاط الأجنة وإسناد القتل إلى النساء وإن كان بعضه يفعله الرجال. لأن النساء كن يرضين به أو يسكتن عليه، وخص الأولاد بالقتل مع أن القتل عامة منهي عنه، لكونه أشد ألوان القتل وأقساها، فضلا عن انتشاره في الجاهلية، وإضافة القتل إلى النساء يوحي ببشاعة هذا الجرم وشناعته، والبهتان في حقيقته الافتراء، والكذب الذي لا شبهة لكاذبه فيه، لأنه يبهت من ينقل عنه[1].

والافتراء: اختلاق الكذب، أي لا يختلق أخبارا بأشياء لم تقع[2]، وإن كان النهى عن الافتراء والبهتان أمرًا عاما يشترك فيه الرجال والنساء، إلا أن النهي عنه هنا خاص بالنساء، وهو بهتان مفترى بصورة خاصة بالنساء مخصص بقوله: "بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ"، ويمكن حمل هذا البهتان على الحقيقة والمجاز والكناية وفقا للمعنى المراد: فإذا كان البهتان على حقيقته وهو الخبر الكاذب، كان افتراؤه بين أيديهن وأرجلهن بمعنى أنه كذب مواجهة في وجه المكذوب عليه. كناية عن ادعاء الحمل، بأن توهم زوجها بأنها حامل ثم تأتى بولد وتنسبه إلى زوجها لئلا يطلقها.

وإذا كان البهتان مستعارا للباطل الشبيه بالخبر البهتان، كان "بين أيديهن وأرجلهن" محتملا للكناية عن تمكين المرأة نفسها لغير زوجها"[3].

---

(1) لسان العرب مادة بهت.

(2) لسان العرب مادة فتر.

(3) التحرير والتنوير، ج١٣، ص١٦٧.

فقد عبر باللازم "البهتان والافتراء" وأراد ملزومه "الولد" كناية عن موصوف، ولا يخفى أن هذه العبارة "ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن" جامعة لمعان كثيرة من اختلاط في الأنساب وضياع للإرث، وذهاب لمكارم الأخلاق.

ولا شك أن الكناية هنا أبلغ من الحقيقة؛ لأنها أعطتنا المعنى مصحوبا بالدليل والبرهان، وأفادت الإيجاز والدقة في التعبير، فلو حاولنا شرح هذه الكناية وبسطها لاحتجنا إلى عبارات كثيرة، وعجزنا عن استقصاء جميع معانيها؛ لذا كان اقتضاء المقام لهذا الأسلوب الكائن دليلا على دقته وعلو رتبته، ومظهراً من مظاهر إعجازه.

ولا يمنع من هذه المحامل التي خرجت عليها الآية أن يكون النبي h قد بايع الرجال على مثلها، وإن كان بعضها لا يتصور في الرجال، فأخذ لكل صنف ما يصلح له منها.

وبعدما خصص المولى عز وجل في بنود البيعة وذكرها تفصيلا لخطورة شأنها، عمم النهي وأجمله بقوله: "وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ" ولكن لما لم يقتصر على النهي بقوله: (وَلَا يَعْصِينَكَ)؟ فرسول الله h لا يأمر إلا بالمعروف (لأن طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب)[1].

وقد يكون لغرض التوسعة عليهن في أمر لا يتعلق بالدين مما له صلة بشئون حياتهم مما لم يشمله النهي السابق.

وبعد أن طالت جملة الشرط بما حوته من بنود للمبايعة جاء الجواب مفرعا على "يبايعنك" فقال: "فبايعهن" فإذا تحققت لك تلك البنود السابقة وتيقنت

([1]) الكشاف للزمخشري، ج٤، ص٨٧.

من التزامهن فاقبل منهن ما بايعنك عليه، لأن المبايعة بين طرفين؛ لذا صيغت لها المفاعلة وفعل الأمر في قوله: (بايعهن واستغفر لهن) للتوجيه الإلهي لنبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم فإذا تمت المبايعة كان لهن البشرى باستغفار النبي –صلى الله عليه وسلم– لهن عما فرط منهن في الجاهلية مما جاء في شروط البيعة، وحذف مفعول الاستغفار لتعميم أوجهه وصوره، وفي ذلك إكرام للمبايعات وتقدير لمبايعتهن.

فالبيعة في الإسلام صورة داعمة للأمة الإسلامية في بداية نشأتها، ولم يكن للمرأة أن تتخلف عنها بحال من الأحوال، فهي الركن الركين في مجتمعها، الداعمة لأركانه بكل ما أوتيت من حكمة ورجاحة عقل وحصافة فكر، تميز بهما الحق من الباطل.

وإذا كان للمرأة هذا الدور في بداية الدولة الإسلامية فكيف بمن ينادون ويتشدقون الآن بدور المرأة في قرننا الحادي والعشرين إذا كان المجتمع قد تخلى عن إعطاء المرأة دورها، فما ذلك إلا لتخليه عن اقتفاء أثر النهج الإسلامي القويم الذي أرسى قواعده هادى الأمة ومؤسس حضارتها سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

***

الإهداء

المبحث الرابع

المرأة العاملة

لقد أتاح الإسلام للمرأة أن تعمل وإن كان الأصل في عملها هو عملها في منزلها، فقد أكرم الإسلام المرأة وحمَّلها من مسئولية العمل ما لا يمكن للرجل القيام به.

وترك الإسلام مجال العمل خارج البيت رحباً ترتاده المرأة كما شاءت، ما دام ضمن دائرة أنوثتها، وبضوابط شرعنا الحنيف.

لقد عرض القرآن الكريم صورة مشرفة للمرأة العاملة، فقد خرجت ابنتا شيخ مدين لرعي الغنم؛ لأن أباهما كان شيخًا كبيرًا طاعنًا في السن، وليس لديه من يقوم بالعمل، قال تعالى: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير * فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِين" [القصص:٢٦]

دلت "لما" على انتهاء الرحلة المرهقة بالنسبة لنبي الله موسى، والورود هنا بمعنى الوصول إلى أرض مدين؛ لأن ماء القوم دليلٌ على تجمعهم حوله، ولا يعني الورود أنه شرب منه فعلا، وذلك المعنى يوضح به قوله -تعالى-: "وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا" [مريم:٧١]، فلا يعني الورود إلا الوصول إليها، ولا يلزم التذوق منه والمقصود عندما

وصل بلاد مدين فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، كناية عن صفة الأنس بالبشر بعد الفزع والرعب.

وكان اختيار اللفظ القرآني "وجد" أنسب للسياق مما لو قال "نظر" أو شاهد" أو "رأى" مثلا لأنه معنى "وجد" أنه يطلب هنا الأمر ويبحث عنه، وسيدنا موسى كان في حال فزع وهلع شديد، فلما وقعت عينه على الناس استراح واطمأن وكأنه وجد ما يبحث عنه من الأمن والأنس.

ولشدة تزاحم القوم حول الماء عبر النظم الكريم بحرف الجر "على" بدلاً من "عند" وكان الناس اعتلوا الماء وذلك على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف، مما يبرز صعوبة الأمر بالنسبة للفتاتين، والتعبير بلفظ "أمة" أيضًا زاد من صعوبة السعي بالنسبة لهما فورد على الماء قوم كثير، وقوله تعالى "من الناس" احتراس[1] أفاد أن التزاحم لم يكن من الحيوانات وإلا هان عليهما الأمر، ولكنه كان من الناس أيضا (فالأمة جماعة يجمعهم أمرها من دين أو زمان أو مكان)[2]. قال تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ"[3].

والفعل المضارع (يسقون – تذودان) صور لنا صعوبة الوقوف، كما أوحى لنا بطبيعة نبي الله موسى المهمومة بغيرها حتى وهو في حالة الإعياء الشديدة، يطالع القوم يعنيه أمر الضعيف ويهب لنجدته غير مكترس بألمه وهمه، ولأن الغرض لا يتعلق بمعرفة المسقي ولكن بما بعده من زود

---

(1) المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، د/ عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي.

(2) معجم مفردات اللفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص٣٠، دار الكتب العلمية- ط ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م

(3) سورة الأنعام: آية ٣٨.

المرأتين عن السقي حذف مفعول "يسقون" فضلا عما في الحذف من تعميم للمسقي من الماشية والناس؛ مما يضيف صعوبة أخرى على المرأتين، ومعنى "من دونهم" [أي في مكان غير المكان الذي حول الماء أي من جانب مباعد لأمة الناس؛ لأن حقيقة "دون" الشيء الأسفل من غيره، فشبه المكان الذي يصل إليه الماشي بعد مكان أخر بالمكان الأسفل من الأخر، وكأنه ينزل إليه الماشي، لأن المشي يشبه بالصعود والهبوط][1]**. على سبيل الاستعارة التصريحية.**

كما أن التعبير بحرف الجر "من" مع "دون" أفاد معنى تزودان الذي جعله يتوجه إليهما ويبادر بسؤالهما يجوز أن يكون للظرفية لقوله تعالى "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ"[2]**. أو بمعنى عند كقوله تعالى "لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"**[3]**.**

ومما أسهم في تحريك همة نبي الله موسى نحوهما تلك الحالة التي كانت عليها المرأتان (تزودان) فلو كانتا قابعتين في مكان بعيد عن الناس وأغنامهما لا تتحرك ربما لم يبلغ ذلك المشهد الساكن نظر موسى، ولكنها حالة انكسار وانزواء مع حرج شديد من مخالطة أغنامهم للساقين، إما خوفا من الاختلاط أو لعدم القدرة على المزاحمة، أو خوفا على الأغنام، كل تلك الأسباب جعلتهما "تزودان" أي تمنعان الغنم عن الماء مع شدة حاجتهما إليه مما حرك المروءة والهمة فتوجه اليهما متعجبا من شأنهما

---

(1) التحرير والتنوير ص٩٩.

(2) سورة الجمعة: آية ٩.

(3) سورة آل عمران: ١١٦.

"ما خطبكما"؟، لماذا تمنعان الغنم من الشرب وما أتيتما إلى هنا إلا للسقيا؟

وترك عطف هذه الجملة "قال ما خطبكما" عن جملة "ووجد من دونهم امرأتين"؛ لكونها بدل اشتمال منها. فترك العطف أظهر سرعة توجه موسى إليهما والإسراع بمساعدتهما.

والتعبير عن السؤال بالخطب عادة ما يكون عن مصاب أو أمر مكروه، كقوله تعالى: "إِمَا خَطْبُكُنَّ ذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ"[1]. للنظر إلى إجابة المرأتين عن السؤال الموجه إليهما من غريب لا يعرف عن حقيقتهما شيئا، وكيف جاءت الإجابة موجزة محددة معللة، وصورها القرآن الكريم بقوله: "قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير"، فهما يقفان بمنأى عن الرجال ولا يسقيان إلا بعد انتهاء الرجال وذلك شأنهما دائما المدلول عليه بالتعبير بمضارع المنفي "لا نسقى"، فصدهما عن المزاحمة عادتهما التي لا يحيدان عنها، كما أن دافعهما إلى ذلك هو كبر سن والدهما، فجوابهما كان وافيا بالغرض كما أن التعبير بالمضارع "يصدر" فيه دلالة أيضا على أن الانتظار عادة يومية لأن وصف الرعاء يقتضي أن لهم مواشي يسقونها كل يوم، ومعنى (يصدر) أي يرجعون عن السقي وهي مقابل (ورد) التي جاءت أول الآيات، فما جعل ورود موسى إلى الماء سببا في عدم الانتظار إلى صدور الرعاء.

وعطف قولهما: "وأبونا شيخ كبير" لأنه من جملة ما قالتاه وذلك اعتذار عن حضورهما للسقي مع الرجال.

([1]) سورة يوسف الآية: ٥١.

وكان نعتهما لأبيهما بالشيخ يكفي تعليلا لخروجهما ولكن ما دلالة نعت الشيخ بكونه كبيرًا، فالشيخ هو (الذى استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب وقيل من خمسين إلى آخره)[1]. فمراحل الشيخوخة متعددة، فلما قال "كبير" أفاد أنه وصل إلى أقصى مرحلة من مراحلها ليكون ذلك أدعى إلى خروج البنتين، وقد يكون وراء كلاهما رغبة في استعطاف السائل قصدا للمساعدة.

وبعد أن أبانت المرأتان عن حقيقة وصفهما بادر موسى بالسقيا لهما "فسقى لهما"، وعبرت الفاء عن سرعة السقيا وعدم المجادلة معهما في حوار آخر.

واللام في "لهما" لام الأجل أي: سقى ما جئن ليسقينه رأفة بهما وغوثا لهما. وذلك من قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء والتعب.

وترك ذكر المفعول في قوله: "يسقون – تزودان– لا نسقى– سقى لهما" لأن الغرض هو الفعل لا المفعول (ألا ترى أنه إنما رحمهما وسقى لهما لأنهما كانتا على الزياد وهم على السقي ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبلا مثلا) [2].

ولننظر إلى الخلق القويم والنهج المستقيم فبعد أن أتم فضله عليهما تولى ورجع إلى المكان الذي كان فيه "ثم تولى إلى الظل" فلم يتحدث إليهما أو ينتظر منهما شكرا، وكلمة "تولى" معناها رجع فهى مرادف لـ "ولى"، ولكن زيادة المبنى تقتضي زيادة في المعنى والزيادة هنا تتناسب وصعوبة

([1]) لسان العرب مادة شيخ.

([2]) الكشاف للزمخشري ج٣ ص٣٨٨.

الرجوع إلى المكان بعد هذا الجهد والعناء المبذول في السقي، بالإضافة إلى عناء الرحلة السابق وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه لما وجد برد الظل تذكر بهذه النعمة نعما سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل، وإيتائه الحكمة والعلم وإيصاله إلى أرض معمورة. تذكر كل ذلك وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء "إني لما أنزلت إلى من خير فقير" انظر كيف ناجى المولى عز وجل – مستخدما لفظ "رب" بدلالته على العطف والحنو والشفقة، وكيف جاء بكلامه مؤكدا "إني" وكيف جمع في ثنائه بين خيرى الدنيا والآخرة وذلك من خلال تنكير لفظ "خير" وبما يوحى به حرية التعبير بالموصول "ما" من قوله: "لما أنزلت إلي".

من دلالة على الإيهام ليشمل كل ألوان الخير المتعددة الصنوف والصور، والتعبير عن إيتائه الخير بالفعل "أنزلت" ليشعرنا برفعة ذلك المعطى لرفعة المعطى.

وحديثه عن فضل الله عليه ونعمه لا يفوته وهو في أصعب المواقف وأحلكها –وقوله: "فقير" أي فقير لهذا النوع من الخير وأحتاج إلى أن يشملني ربي بخير مثله.

ولما كان أحسن خير للغريب بأن يجد مأوى له يطعم فيه ويبيت وزوجة يأنس إليها ويسكن، فاستجاب الله دعاءه فجاء رسول شعيب إليه سريعاً لينزل عنده ويزوجه ابنته، وذلك ما أشعرت به فاء التعقيب في قوله "فجاءته إحداهما" وتوحي المبادرة في رد الجميل ومكافأة المحسن "فجاءته" وهو لم يتحرك عن مكانه في الظل.

ولكن لماذا جاءته إحداهما ولم تأت الاثنتان؛ ربما لأن عمل السقيا كان يحتاج إلى جهد ومشقة فقامت به الأختان، أما تبليغ رسالة الأب لم يتطلب هذا الجهد فاكتفى بإرسال إحداهما.

وكان فعل "جاءته" مغنيا عن ذكر "تمشي" إلا أنه أراد أن يبني عليه قوله "على استحياء" ليبين أن مجيئها كان على صورة بعينها، فضلا عن إفادة حرف الجر "على" فهو استعارة تبعية في الحرف "على " فهي مستحبة في مشيتها تمكنها من الوصف والحياء والاستحياء فيه مبالغة في الحياء، فهي صيغة مبالغة وكما هو متعارف عند علماء اللغة أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعني.

فوضحت الآية سبب مجيء الفتاة حين أرسلها والدها لدعوة موسى "عليه السلام" "إن أبى يدعوك" وزيادة في توضيح سبب المجيء ودفعا لأي شبهة تبادر بقولها "ليجزيك أجر ما سقيت لنا" فأبرز ما جبلت عليه المرأة في بناء شخصيتها هي صفة الحياء. فهي ملبس الجمال والزينة، وتلك صورة واضحة للقدوة الحسنة التي يستوجب على المرأة أن تتأسى بها وتحرص عليها.

وجاء التأكيد من كلامها "إن أبي" نظرا لحال المتكلم فهي تريد أن تحقق كلامها وتؤكده وتظهر اهتمامها به، لتدخل المسرة عليه، فضلا عما أفاده التأكيد من أن الدعوة من أبيها.

وتتجلى لنا عظمة تلك الآية وبلاغتها على اختلاف قراءاتها:

١- إذا قرأنا الآية ووقفنا على الاستحياء وابتدأنا بقالت "جاءته إحداهما تمشى على استحياء" نقف ثم نبدأ بقوله "قالت إن أبي..." فيكون المعنى بيان بحيائها حال مشيها.

٢- إذا وقفنا على "تمشي" وابتدأنا من على استحياء "فجاءته إحداهما تمشي" نقف ونبدأ من قوله "على استحياء قالت إن أبي.." فيصبح المعنى موضحا حياءها حين مخاطبة موسى عليه السلام.

وبالتالي فالآية جمعت بين الحياءين.

ونجد روعة التعبير في قوله تعالى "على استحياء"، فلو استحضرنا الصورة الفنية الرائعة التي يرسمها هذا التعبير، فهو ليس تمكنًا من المشي بل مشي عليه، فنتخيل منظر الفتاة وهى تمشي على شارع ليس مكونا من تراب أو أسفلت بل شارع مكون من الحياء، هل رأينا قبل هذا التصوير البياني المعجز صورة شارع مكون من الحياء، ولكن لماذا الحياء تحديداً؟؛ لأنها ستخاطب رجلا وتخبره بدعوة أبيها، بلا شك هي صورة فنية رائعة جسد فيها الحياء وتحول من خلق رفيع إلى شارع ممتد تمشي عليه الفتاة.

وتأكيد الجملة في قوله " إن أبي يدعوك " حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به ، وإدخال المسرة على المخبر به.

والأجر: التعويض على عمل نافع للمعوض، ومنه سمي ثواب الطاعات أجرا، وانتصب "أجر ما سقيت لنا" على أنه (مفعول مطلق بين نوع الجزاء أنه جزاء خير)[١]، فعمله خير محض وجزاء الخير لا يكون إلا خيراً، وذهاب موسى معها لم يكن لطلب أجر مادي فهو لم يكن أجيرًا، فالجزاء إكرام وهو أحوج ما يكون لذلك في غربته، فضلا عن أن قبول الدعوة أمر من شيم النبلاء، فلما قالت له "يدعوك" لم يكن له إلا التلبية، فكان لفظ

(١) التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٠٤.

الدعوة لائقًا بالمتكلم والمخاطب، بخلاف ما لو قالت يستدعيك أو يطلب منك، ولكنها دعوة المضيف إلى ضيفه.

ولكن ألم يكن يكفي تلك المرأة الحيية – التي لا تطيل الكلام مع الغرباء– أن تقول له: "إن أبي يدعوك" وكفى، فلماذا أطالت في الكلام وبينت سبب الدعوة؟ والجواب على ذلك بعدة احتمالات:–

١– حينما ذكرت له سبب دعوة أبيها فإن ذلك يذكر موسى بتلك المرأة التي سقى لها، ولولا ذلك لما عرفها، فقد كان عليه السلام غاضاً لبصره، ولولا عبارتها تلك لما عرفها.

٢– لو اكتفت بقولها: "إن أبى يدعوك" لتوجس موسى عليه السلام – خيفة من تلك الدعوة من أن تكون دعوة فيها شر، وبخاصة وهو خارج من بلده خائفا مترقبا.

٣– إن ذكر سبب الزيارة ومقصودها يوفر الكثير من الأسئلة لدى موسى، ربما تكون قد خطرت على قلبه وخاصة وهو الطريد الذى يتخوف من كل شيء.

٤– إن ذكر صنيع المعروف يجب أن يتقدم في الكلام لإظهار حسن النوايا وتأكيداً على شكر الصنيع.

وليس المقصود من الأجر هو أجر الأجير بل المقصود منه الإكرام والتعويض عن العمل الحسن ومنه سمى ثواب الطاعات أجراً قال تعالى "وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ" وكان فعل موسى خيراً محضا لم يطمع منه في مقابل، لأنه لم يكن يعرف المرأتين وبيتهما ولا أباهما، والتعبير بـ "ما" الصدرية "ما سقيت لنا" أي سقياك لنا؛ يوحى بتقدير شعيب وبناته لقيمة عمل موسى – عليه السلام – وامتنانهم لحسن صنيعه، وهذا المعنى أكدته لام العلة في "لنا".

وطوى النظم الكريم رحلة موسى مع الفتاة إلى أبيها وقص علينا مشهد اللقاء فقال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"

والتعبير بـ "جاءه" أوفق من "أتاه" مثلا؛ لدلالة "جاءه" على تمام الكلام وعدم احتياجه إلى صلة، فالمجيء إلى والد الفتاة كان هو المطلب، بخلاف أتى فلان فيقتضى مجيئه بشيء[1]، وكان من عادات العرب أن يفاتح الضيف بالسؤال عن حاله ومقدمه، لذا قص موسى قصة خروجه من بلده ومجيئه على شعيب وذلك يتطلب أن شعيبا سأله عن سبب قدومه[2].

وعطف قوله: "وقص عليه القصص" على قوله: "فلماء جاءه للتوسط بين الكمالين" فكلتا الجملتين تحكي مشهدا واحدا وتصور اللقاء الذى تم بين موسى وشيخ مدين، ولما كانت لما" ظرفية شرطية، جاء جواب الشرط ليبين لنا نتيجة هذا القصص الذي حكاه موسى للشيخ فقال تعالى: "قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالمين" وبدأ الشيخ بطمأنته وإزالة الخوف المبادئ في قصته "قال لا تخف"، الخائف يحتاج إلى من يؤمنه ويطعمه "الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنهُمْ مِنْ خَوْفٍ"[3] وكان كلام الشيخ عن نفي الخوف، لأن مدين لا ينالها حكم فرعون، لتبعتها للكنعانيين، ثم أكد له داعى الأمة بتعليل النهى عن الخوف، فقال: "نجوت من القوم الظالمين"

---

(1) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص٢٥٥.

(2) التحرير والتنوير ج١٠، ص١٠٤.

(3) سورة قريش، آية

وذلك تصديقا لما أخبره به موسى وعلمه من خبر بني إسرائيل وعدوانهم على أنبيائهم.

ثم حذف النظم الكريم ما لقيه موسى من شعيب من الجزاء بحسن الضيافة والطعام، وانتقل إلى ما هو أهم في القصة وهو عرض إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجره وما فهمه الأب من هذا القول فقال تعالى "قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ".

فهذه الآية ظاهرها مدح – موسى عليه السلام– وبيان كفاءته وجدارته لأن يتولى رعاية الغنم (وإن نلمح من خلال مدخل هذا أسلوب تعريض وهو إلى التصريح أقرب وإن كان المقام يقوي التعريض ويرشحه، لحياء تلك المرأة التي وصفت شيخها منذ قليل "على استحياء")[1]، لقد مكن هذا التعريض تلك الفتاة الحيية من أن تبيح بما في داخلها تجاه موسى، حيث أعجبت بشجاعته وقوته وحسن صنيعه معهم، مما جعلها تتمنى إطالة عشرته ودوام صحبته، فأشارت على أبيها أن يستأجره لرعي الغنم وإن ذيلت طلبها بنعته بأروع الصفات التي من الممكن أن يتحلى بها أجير، بل أجمل صفات الرجال على الإطلاق "القوة والأمانة".

فحياؤها وأدبها يمنعها من التصريح بما يكمن في داخلها من مشاعر دفيئة تجاه هذا الرجل.

وجملة "إن خير من استأجرت" تعليل لطلب الاستئجار أي لأن مثله من يستأجر، وهذه الجملة تذييل جارٍ مجرى المثل، فجاءت الكلمة جامعة مرسلة مثلا لما فيها من عموم ومطابقة للواقع وذلك من وجوه:

١- فالتعريف باللام في "القوى الأمين" للجنس ودال على العموم.

---

(١) التعريض في القرآن الكريم ج١، ص٦١، إبراهيم عبد الله الخولي ط

٢- والخطاب في "من استأجرت" وإن كان موجها إلى أبيها إلا أنه صالح يعم كل من يصلح للخطاب.

٣- و "من" موصولة في معنى المعرف بلام الجنس في دلالته على العموم إذ لا يراد بالصلة وصف خاص بشخص معين.

٤- جعل "خير من استأجرت" خبرا مع صحة جعله مسندا إليه لتساويهما في المعرفة إلا أنه آثر بالتقديم ما هو أهم وأولى بالعناية؛ لأن الجملة سيقت مساق التعليل لجملة "استأجرت" فوصف الخير أهم من مقام تعليها ونفس السامع أشد ترقبا لحاله.

فكان إثبات القوة والأمانة لموسى – عليه السلام- إثباتا للحكم بدليل وبرهان، فتقدير معنى الكلام:

استأجره فهو قوى أمين، وإن خير من استأجر مستأجر القوى الأمين.

فاشتملت الجملة على خصوصية تقديم الأهم، وعلى إيجاز الحذف على المذهب الكلامي، فاستوفت بذلك غاية مقتضى الحال وكانت بالغة حدَّ الإعجاب[1].

* * *

(1) بتصرف التحرير والتنوير ج١٠، ص١٠٦.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الممتعة بين آيات الذكر الحكيم التي تحدثت عن "دور المرأة في المجتمع دراسة بلاغية".

وبعد هذه النفحة الطيبة من النظم المعجز الذي سلمت به عقول البشر وتبددت أمامه شبه المنكرين وأباطيل المغرضين انتهيت في هذا البحث إلى الحقائق الآتية:

١- أن الإسلام لا يقيم – في سباق الفضائل – وزناً لصفات الذكورة والأنوثة، فالكل سواء في العقائد والعبادات والأخلاق، الكل سواء في مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد – فلا خشونة الرجل تهب له فضلا من تقوى، ولا نعومة المرأة تنقصها حظاً من إحسان.

٢- أن القرآن الكريم قد أعلى من شأن المرأة، وكان سباقاً في تكريمها وتشريفها من كل الأنظمة الحديثة، وإن كل التهم التي توجه إلى الإسلام من إجحاف لحقوق المرأة ودورها في المجتمع تبطلها تلك الأدوار التي تقلدتها المرأة والتي حكاها النظم الكريم.

٣- أن الآيات التي ذكرت دور المرأة في المجتمع حافلة بشتى صنوف البلاغة التي عضدت تلك المعاني، وأبرزت هذه القيمة "التي أعطاها الدين الإسلامي للمرأة".

* * *

الإهداء

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الألوان البديعية، د. حمزة الدمرداش زغلول.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش.
-الإيضاح للخطيب القزويني ضمن شروح التلخيص.
-البحر المحيط، تأليف محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار البناء للطباعة والنشر، القاهرة.
- التحرير والتنوير، تأليف محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧م.
- التصوير البياني، دراسة تحليلية لعلم البيان، د، محمد أبو موسي، مكتبة وهبة.
- التعريض في القرآن الكريم ط: أولى، د. إبراهيم محمد عبدالله الخولي.
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري.
- الكشاف للزمخشري" عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، مطبعة عبد الرحمن محمد.
- المثل السائر لابن الأثير، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، د/ عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي.
- تفسير الفخر الرازي.

- تفسير النسفي، للعلامة الجليل أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وأولاده.
- حاشية محيي الدين شيخ زاد على تفسير البيضاوي.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لعلم البيان، د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة.
- شروح التلخيص، لمجموعة الشراح، طبعة دار السرور، بيروت.
- فتح القدير للشوكاني.
- في ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب ط ١٧، دار الشروق ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- لباب المعاني، د/ محمد حسن شرشر.
- لسان العرب لابن منظور، ط دار المعارف- القاهرة.
- معاني التراكيب، د/ عبدالفتاح لاشين، دار الكتاب الجامعي.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني، طبعة ١٩٩٧م وحققه ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٨٨هـ.
- من بلاغة النظم العربي د. عبدالعزيز عرفة.
- نظم الدرر من تناسب الآيات والسور للبقاعي.

* * *